نظرات مارسيل بروست[1]

ـ ٨ ـ

ينتمى مارسيل بروست إلى أسرة يهودية فرنسية نشأت نشأة مسيحية كاثوليكية. وله صلة قرابة بالفيلسوف الفرنسى المشهور هنرى برجسون، وكتب مارسيل بروست على صعوبة قراءتها لايستغنى عنها الباحث فى النفس، وقد وجد نقادًا ومعجبين به، فمن نُقَّاده من ذكر أنه ينظر إلى الحياة بالمكرسكوب، أى العدسة التى يُنْظَرُ بها إلى الأمور الصغيرة؛ فقال بروست: إنه ينظر بالتلسكوب، أى العدسة التى تُرَى بها الأمور البعيدة، والواقع أنه ينظر بالاثنين معًا بالمكرسكوب والتلسكوب. ومنهم من سماه على سبيل الفكاهة مس جين أوستن الفرنسية، يعنى القصصية الإنجليزية المعروفة. وهذا الوصف لايشابه الحقيقة إلاَّ كما تشابه الحقيقة الصورة الكاريكاتورية المبالغ فى بعض ملامحها على سبيل الفكاهة، وصحيح أنه يتفق وجين أوستن فى ولوعهما بأحاديث المجتمعات والمجالس فى القصص، وأن لكل منهما بصيرة سيكولوجية وأنهما قد يهتمان بالأمور الصغيرة، ولكن بروست يتوغل فى الأمور السيكولوجية ـ أى النفسية ـ توغلاً لامثيل له. وقد نشأ مريضًا مُعْتَلا وقضى الثلث الأخير من حياته فى بيته لمرضه، واتهمه ناقد آخر بأنه كان فى أكثر قصصه مولعًا بحياة النبلاء والأغنياء ومن اتصل بهم من الخدم وأنه لم يرَ الحياة كاملة من كل وجه كما رآها شكسبير أو بلزاك أو أناتول فرانس، ولكن ولوعه بحياة هؤلاء القوم كان ولوع الباحث لا ولوع المعجب المأخوذ بما يرى، وإذا وصل فى بحثه إلى حقيقة سيكولوجية فإنها حقيقة فى كل النفوس بلا تمييز بين الطبقات، وقد نشأ لاعتلاله بين النساء،

(١) المقتطف: يونيو سنه ١٩٤٨.

ولعلَّ ذلك أكسبه شيئًا من أسلوب النساء فى التحدث عن جيرانهنَّ والاهتمام بأحاديث المجتمعات مهما كانت تلك الأحاديث صغيرة، وإعطاء تلك الأحاديث فى بعض الأحايين قيمة نفسية أكبر من قيمتها، ولكن القارئ إذا صبر على قراءتها عاد بفائدة ما قد تحتويه فى بعض الأحايين من الدراسات النفسية التى تتخللها، وبالرغم مما قد يعترض القارئ فيها من الملل فإن بعض كتبه قطعًا لايمل القارئ معاودة قراءتها، وقد يستطرد فى تتبع البحث النفسى استطرادًا بعيدًا. وله أسلوب شائق فى وصف مناظر الطبيعة والناس. وقد اعترف سمرست مُو ام القصصى فى كتابه المسمى (بالخلاصة)، أنه شعر بملل شديد فى قراءته كتاب (طريقة جرمانتيس) من كتب بروست، وقد شعرت بمثل هذا الملل، ولعلَّ من أسباب الملل أيضًا أن القارئ يود أن يقرأ عن حوادث هامة، وقصصه ليست قصص حوادث بل قصص زيارات وأحاديث أو بحث نفسى، أو يود أن يقرأ شيئًا من مثل فكاهة أو سخر أناتول فرانس الحيوى، وقد ذكر هافلوك إيليس فى كتابه المسمى (رقصة الحياة) وهو اسم رمزى مدحًا كثيرًا لطريقة بروست فى البحث النفسى ولاسيما فى كتابه المسمى (فى الأجمة المزهرة) وأحسب أن هافلوك إيليس كان مصيبًا فى اختيار هذا الكتاب من كتب بروست ولو أن بعض المعجبين به يفضلون كتابه المسمى (طريقة سوان) ولكنى أفضل ما اختاره هافلوك إيليس وأراه أملأ لنفس القارئ، إلاَّ إنى أرى أن كاتبًا مثل بروست لاينال الإنصاف التام، ولا يعرف مقدار بحثه فى النفس إلاَّ بقراءَة كتبه كلها إذا كان ذلك من المستطاع، وبروست يذكر أن حياة الأثرياء التى يصفها حياة تبعث الملل بالرغم من وجاهتها وزينتها، فإذا كان ذلك حقا فهو يزيد فى براعة فنه الذى به استخلص منها الحقائق النفسية العديدة.

ومن نظراته النفسية ما يلى:-

١ - كثير من الناس يردّدون آراء معاشريهم بشغف واهتمام خاص إذا كانوا لم يعرفوها من قبل، ولا يستطيعون الحكم عليها أصواب هى أم خطأ، وإنما يولعون بترديدها وإظهار اللهفة فى ذكرها، وقد يقنعون السامع أنها آراؤهم وأنهم قادرون على فهمها والحكم عليها.

٢ ـ قد يسوء رأى المتحدث فى سامعه، ولكنه مع ذلك يشركه فى سماع ذم إنسان أخر غائب، كأنما السامع خال من صفات الذم التى ذكرها، فيسرع سامعه إلى التصديق والموافقة بشغف ولهفة وبضحك ومسرة؛ كى يبعد عن نفسه احتمال الوصف بالصفات المذمومة المذكورة، وهو قد يعرف أن محدثه يغتابه كما اغتاب الغائب، ويذمه فى غيبته كما ذم الآخر، ولكن ذلك لايمنعه من مشاركته فى ذم المذموم ظنا منه أن موافقته قد تبعد الريبة عن نفسه وتمنع محدثه عن اغتيابه فى المستقبل، وهذه منه محاولة خائبة، ولكنها تتجدد وتبعث الأمل والزهو والارتياح.

٣ ـ فى بعض الأحايين تبدر من إنسان شرير بادرة حنان وعطف أو يؤدى معروفًا غير متوقع، فنشعر بارتياح نحوه وشكر له أكثر من ارتياحنا وشكرنا إذا كان غير شرير. ولعلَّ فى شكرنا وارتياحنا تلهفًا إلى الاطمئنان من شره وارتياحًا لزوال توقع الشر منه أو سرورًا وتعاظمًا باختياره إيانا لعطفه وخيره وإن اختار غيرنا شره، وهذا بالرغم من أننا قد نسىء الظن بالباعث الذى بعثه على الخير وهو شرير. ولعلنا لانشعر بهذه اللهفة والارتياح إذا كان العطف أو المعروف من رجل من أهل الخير؛ لأن العطف أمرٌ مفروض ومتوقع من مثله.

٤ ـ من طبيعة الكذب أن الكاذب مهما أتقن كذبه، تبدو منه فلتة صغيرة فى أثناء إحكام الكذب وحبكه، وهو يظن أن سامعه لايهتم بالتأكد من صدقها والبحث عن حقيقتها لصغر شأنها، ولكن سامعه قد يتتبعها بالبحث ويتأكد من كذبها فتكون سببًا فى كشف كل كذبه، وتدعو إلى سوء الظن به وسوء الرأى فيه، وقد تطلع هذه الفلتة الصغيرة سامعه بغتة على كذبه فَيُفَاجأ الكاذب مفاجأة غير سارة ويحاول تفسيرها وتلافيها فلا يستطيع، وهذا كما يقال فى المجرم الذى يفكر ويتخذ كل أهبة لمنع نسبة الجريمة إليه، ثم هو بالرغم من كل تفكيره واحتياطه يترك أمرًا صغيراً يدل عليه لايفطن له ويكون السبب فى كشف جرمه.

٥ ـ متى أقنع الإنسان نفسه أنه ذو أخلاق سامية ثم حقد على إنسان أو غضب عليه فإنه ربما استطاع أن يحمل نفسه على ارتكاب أى عمل دنىء لإشباع حقده وإرضاء غضبه إذْ أى شىء لايكون مُبَاحًا خلالاً للقدِّيس الفاضل والملكِ الطاهر الذى يراه فى نفسه.

٦ ـ بعض المهذبين المثقفين إذا أدَّوْا خدمة أو أهدوا هدية قللوا من قيمتها وأصغروا من شأنها مجاملة وتأدبًا وتلطفًا فى العشرة، ولكن بعض من تهدى إليه الهدية أو تؤدى له الخدمة يأخذ قولهم مأخذ الجد، فيوافقهم عليه بطريق مباشر أو غير مباشر، إمَّا من قبح الذوق أو قلة العقل أو حُبا للتعاظم، فتكون موافقته لمن أدوا له الخدمة باعثة للامتعاض أو الغيظ، فيمتنعون من التلطف والتجمل معه أو من أداء أى خدمة أو صنع أى معروف.

٧ ـ قد يمدح المادح إنسانًا ولا رغبة له فى مدحه إلاَّ للتعريض بسامعه كأنَّ المادح يريد أن يقول لسامعه إنه ليس على صفات المدح التى ذكرها فى الممدوح، وقد يَفْتنُّ فى إظهار قصده المستتر بلباقة تمنع من صراحة المؤاخذة فَيحَارُ السامع ويرتبك، وقد يجارى المادح فى مدح الممدوح لارغبةً فى مدحه ولا لأنه يعتقد أن الممدوح يستحق كل هذا المدح وإنما يجارى المادح خشية ـ إذا لم يجاره ـ أن يقال إنه يكره صفات المدح المذكورة فى الحديث وإنه خال منها وإنه فطن إلى التعريض به وإنه يستحق ذلك التعريض به.

٨ ـ كانت السيدة فيردوران لاتدعو إلى منزلها من الضيوف إلاَّ من يوافقها على كل رأى مهما كان سخيفًا، وعلى كل قول مهما كان باطلاً محالاً، فلم يبق لها من الزوار غير المستذلين المستضعفين، وكانت تقول لهم إن فلانة النبيلة الثرية لايزورها الضيوف والزوار إلاَّ لأنها تدفع أجرًا كبيرًا لمن يزورها على زيارته لها، وبالرغم من أن ضيوف السيدة فيردوران كانوا يتمنون أن تدعوهم تلك النبيلة الثرية وبالرغم من أنهم كانوا يعرفون أن الناس يتلهفون ويتوقون إلى زيارة تلك النبيلة الثرية وأن قصة دفعها أجرًا لمن يزورها قصة ملفقة باطلة، فإن أمثالهم من المحرومين الذين تستذلهم السيدة فيردوران لآرائها وأقوالها كانوا يستطيعون أن يحملوا نفوسهم على نسيان الحقيقة وإنكارها، ويستطيعون أن يصدقوا قولها عن تلك النبيلة الثرية، وكان يحلو لهم ادعاء الترفع عن زيارة نبيلة تدفع أجرًا لمن يزورها على زيارته كما أوهموا أنفسهم وصدَّقوا، وهكذا تستطيع النفس أن تقبل المحال الباطل الذى لايخفى بطلانه، إذا كان فيه مايرضى زهوها أو حسدها أو

حقدها أو حتى ما يُرضى إيحاء الموحى الباطل إذا رجت من ذلك الموحى بالباطل عطفًا أو خيرًا أو ما يرضى أهواءها وخواطرها السانحة التى تستعز بها.

٩ ـ لعلَّ من أسباب نسبة المُحَدِّث عيوب نفسه إلى غيره من الناس، التلذذ بالتحدث عن نفسه بطريقة غير صريحة، وهى طريقة تطهره من تلك العيوب فى نظر بعض الناس كما يظن، وتعطيه لذة المعترف اعترافًا غير صريح وغير محسوس وكأنه يجد لذة فى مباشرة عيوبه التى ينسبها إلى الناس من غير أن يؤاخذه الناس على تلك اللذة ومن غير أن يفطنوا إليها، وكل إنسان مشغول منهوم بصفات نفسه وميولها، فتلفته تلك الصفات إلى مثلها فى غيره أو يتوهم أنها لفتة، ويقنع نفسه ويخادعها فى تلك اللفتات وهو يحسب أنه يرى الناس مرآة لنفسه فينسب إليهم مالايزينه، وعلاوة على ذلك فإن كل سيئة فى نفس المحدِّث كأنها مهنة يعرف أسرارها وكل عيب كأنه حرفة يدرك خفاياها، وكل صاحب مهنة أو حرفة مولع بالتحدث عن حرفته أو مهنته؛ لأنه يعرفها أكثر مما يعرف أى شيء آخر، كما يحلو للطبيب أن يتحدث عن الطب، وللمعلم أن يتحدث عن التعليم، وللمحامى والقاضى أن يتحدثا عن القضاء والقوانين، وللنجار أن يتحدث عن النجارة، وللزارع أن يتحدث عن الزراعة، وكذلك صاحب السيئة والعيب، يتحدث عنهما كأنهما مهنة أو حرفة الكلام فيهما غالب على لسانه، ولكنه ينسبهما إلى الناس بقصد التجمل والترفع.

١٠ـ بالرغم من شرور الناس وقسوتهم وتحاسدهم، فإن كل نفس بها جانب من الخير والحنان والكرم والرقة، وقد تجده غريبًا فى النفس بين صفات تخالفه كما قد تجد الزهرة النادرة النفيسة غريبة فى وادٍ مُوحش قفر مجدب. وإذا منعت الأثرة ومنع حب النفس من ظهور جانب الخير من النفس، فإن تلك الرقة وذلك الحنان والكرم صفات موجودة مستترة فهى موجودة بالرغم من خفائها. وقد تجد الرجل الفظ الغليظ الطبع القاسى إذا قرأ قصة مؤثرة يبكى لما حَلَّ بالضعفاء والأبرياء فيها من الآلام والظلم حتى تفيض دموعه وتبلل وجهه، وهو قد لايتورَّع فى أعمال الحياة من أن يفعل مثل ذلك الظلم الذى أثار عطفه وأراق دموعه عند ما قرأ القصة، ولكن الإنسان إذا قسا أو ظلم سَوَّغ عمله. فإنه يعد

نفسه دائمًا عادلاً مهما كان قاسيًا ظالمًا، ويقول إن القسوة قد تكون نوعًا من الرحمة، بمثل هذا القول يسوّغ المرء إتيان ما يجلب له منفعته أو يرضى نهمة غضبه بالرغم من جانب الرقة والعطف فى نفسه.

١١ ـ كثيرًا ما يقول إنسان لآخر يسرنى أن أفعل كذا كى أسرك ثم يحسب أنه قد أدَّى له خدمة، أو صنع معه معروفًا، وما يهم السامع ليس ما يدعى القائل أنه يود عمله ليسره، بل مايستطيع أن يعمله كى يسره، ولكن القائل يستطيع أن ينسى ذلك وأن ينسى أنه لم يعمل ما يدعى أنه يود أن يعمله كى يسر السامع، ويكاد يقنع نفسه أنه فى الواقع قد صنع معروفًا وأدَّى خدمة، والمجاملة فى الكلام محمودة ولاشك، ولكن من غير المحمود أن يغالط المجامل القائل نفسه حتى يظن أن المجاملة تقوم مقام الحقيقة وحتى يحسب أن سامعه مدين له بالمعروف الذى يكاد يقنع نفسه أنُه أدَّاه.

١٢ ـ إذا وصف إنسان إنسانًا آخر أمامك بمدح أو شر، فإنك قد لاتصدق القائل، ومع ذلك تتأثر بقوله المرفوض بالرغم منك أو قد تتأثر كلما رأيت ذلك الإنسان الموصوف أو كلما فكرت فيه أو سمعت به أو اتصلت به أى اتصال، ولعلَّ ذلك من طرق الإيحاء، ولعلَّ هذا التأثر يكون فى الوصف بالشرّ أكثر مما يكون فى الوصف بالخير؛ لأن أثرة النفس تجعلها أميل إلى التأثر بالشر إلاَّ إذا كانت لها عند الموصوف حاجة ورأت أن الحصول عليها بأن تتأثر بوصف الواصف له إذا كان خيرًا.

١٣ ـ إن الإنسان إذا حدثه محدّث مغرم بأن يطبق على نفسه كل حديث بالخير أو الشر؛ إذ أنه يفكر فى نفسه حتى ولو كان مُحَلِّقًا فى سماء التفكير النظرى العام، وبعض الناس يستطيعون إخفاء هذا التطبيق إذا كان الحديث كريهًا يخفض من قدر أنفسهم ويظهرون أنهم لم يطبقوا الحديث على أنفسهم ولاصلة لهم بموضوعه، وبعضهم ترى فى عينيه شيئًا من الشك والقلق وسوء الظن خشية أن يكون المحدّث يريد بحديثه النظرى العام الإشارة إلى شىء فى أنفسهم لايستملح.

١٤ ـ ليس الإفحام فى المجادلة والمحاجة دليلاً دائماً على رجاحة رأى المناظر الذى أفحمك، فقد يُفْحِمُك المجادل فلاتستطيع الرد والقول، إذا كانت آراؤه لااتصال لها بنفسك وعقلك أو لاحقيقة لها على الأطلاق، أما المناظر اللبق فهو إذا أدلى بحُجَّة ورأى راجح قد يستطيع أن يجد جانبًا من عقلك يألف ذلك الرأى وإن خالفته فيستطيع أن يتصل بأفكارك ويلقحها كما تلقح الأشجار؛ ومن أجل ذلك كان «برجوت» إذا ناظرنى أستطيع أن أرد عليه القول، ولكن رأيه كان يلقح رأيى ويتداخل فى نفسى، وكانت طريقته فى المناظرة أن يرد على قولى بما يخالف رأيى وكأنه لايخالفه إلاَّ فى بعض الأمور دون بعضها، فكان يصل رأيه برأيى مظهرًا موضع الاتفاق، حتى ولو كان صغيرًا، وموضع الاختلاف وأسباب الاختلاف، فتكون مقبولة أكثر مما تكون لو فصل بين رأيى ورأيه فصلاً تامّاً.

١٥ ـ إن سرور المرء إذا فهمه وقدّرَهُ رجل ذو عقل كبير راجح، أقل من غيظه أو حزنه إذا لم تفهمه ولم تقدره امرأة، كأنها لاعقل لها ولا ذكاء، لغباوتها، إذا كان يحبها؛ فالإنسان يغتبط إذا فهمه من يحبه أكثر من اغتباطه إذا فهمه من لايحبه.

١٦ ـ إن اتفاق الآراء والنظريات لايؤدى إلى تدانى المثقفين قدرمايؤدى إلى تدانيهم ائتلاف الأرواح والأذواق والأمزجة، وقد يُظْهر المرء امتعاضًا وغيظًا إذا وافقه على رأى يستعز به إنسان يعتقد أنه فاسد الذوق جامد الروح ثقيل الظل حتى ليكاد من امتعاضه وغيظه أن يتهم الرأى الذى شاكله فيه ووافقه عليه من يستثقل من الناس، إلاَّ إذا كان صاحب الرأى سياسيا فيخفى غير ما يظهر؛ لأن همَّ السياسى كسب الأنصار وإن كان يستثقلهم، أو إذا كان صاحب الرأى فيه ذلك الشعور بالنقص الذى يدفعه إلى العطف على كل من يردد رأيه ويوافقه عليه، وإن كان يخالف ذوقه ومزاجه. ومع ذلك فإن الرغبة فى احتكار الرأى لنفسه ولمن وافق مزاجه وذوقه نوع من الأثرة وحب الذات.

١٧ـ كثيرًا مايدَّعى المرء عاطفة أو يتصنع شعورًا أو يهيئ فكرة باطلة وهو يعرف بطلان كل ذلك، فإذا لجَّ به هذا الادعاء وألحَّ عليه التصنع انقلبت هذه الأمور فى نفسه حقائق ومثَلُهُ مثَلُ الإنسان إذا أوحى إلى نفسه أنه مريض فلا

يزال به الإيحاء النفسى حتى يكون مريضًا معتَلا، وكذلك إذا ادَّعَى على إنسان دعوى تسوجب الملامة والمؤاخذة وهو يعرف أنها دعوى باطلة، فإنه لايلبث أن يصير ادعاؤه حقيقة فى نفسه، إذا لم يُراجَع مراجعة تؤدى إلى التفاهم.

١٨ ـ مما كنت أتعجب له أن «بلوش» كان كثيرًا ما يذم من لايستحق بعض ذمه أو كله حبا للذم لالسبب آخر، كما أنه كان يمدح من لايستحق كل مدحه أو بعضه. وقد يختلف تفسير هذه الظاهرة منه؛ فلعله كان يتخذ من مدح الممدوح وسيلة يخدع بها السامع كى يقبل ذم من يذمه، إذ أن مدحه الناس قد يُبْعد عن الأذهان أنه حقود سيئ الرأى فى الناس، فاذا ذمَّ بعضهم تلمسوا له عذرًا أو لعل التفسير أنه كان يرى فى مدح الممدوح تكفيرًا عن ذم المذموم، أو لعلَّ الدافعين كانا يمتزجان فى نفسه، أو قد يكون المدح والذم استجابة منه للحالة الغالبة على نفسه من راحة أو تعب أو حزن أو سرور أو غيظ عام يحيله على إنسان معين أو ارتياح عام يشمل به نفس إنسان آخر فيصير مدحًا، وهذه الصفات كلها تشاهد فى الناس.

١٩ـ كان «بلوش» يُقْسِم ويحلف لا أملاً فى إقناع الناس بصدق الكذب الذى كان ينمقه بالقسَم، فما أظن أنه كان يأمل ذلك، وإنما كان يُقْسِم بدافع أشبه بالهستيريا وانسياقًا مع الشعور المتغلب على نفسه وجسمه، وذلك الدافع إلى الحلف والقسم كان يمنحه لذة شديدة فى تزيين الكذب بالحلف وتجميله بالقسم، وكان وهو يحلف يُخَيَّل لمن يراه أنه يفيض حنانًا ورقة ويذوب لطافة وإن كان موضوع الحلف يخالف كل ذلك، وكأنما كان ينتشى من عذوبة الإحساس الغالب عليه الذى دفعه إلى الحلف كذبًا ـ وبعضهم إذا حلف كذبًا يخالف عذوبة حلف «بلوش» بالكذب، فإن بعض الناس من إحساسه أنه كاذب ومن غيظه وخوفه أن يعرف السامع ذلك يحلف كذبًا وكأنه يكاد يلتهم سامعه، ويقسم كذبًا وكأنه يكاد يبتلع ذلك السامع، كأنه بالعنف يريد أن يخيفه فيصدقه.

٢٠ ـ إن بعض الناس قد يريدون أن يسمعوا من جليسهم قولاً يسرهم ويرضيهم، ولكنهم مع ذلك يريدون أن يوهموا أنفسهم أنهم لم يحثّوه على قوله، ولم يغروه به ولم يلحوا عليه فى طلبه، ولم يلجُّوا معه فى الحديث حتى

يذكر القول الذى يريدون أن يسمعوه منه، وهكذا فعل دوق «جرمانتس» مع «سوان» عندما أراد أن يسمع منه أن صورة جَدِّهِ من رسم كبار الرسامين المصورين، فجعل يقول له لا تملّقنى، اذكر الحقيقة، ما رأيك فى الصورة؟ فلما ضاق «سوان» ذَرعًا قال: إنها كالنكتة الباردة والفكاهة الغثة، فلم يستطع الدوق أن يخفى إشارة تدل على الغيظ؛ لأنه لم يظفر بالقول الذى كان يُحِبُّ أن يسمعه، بل ظفر بعكس ذلك، والحقيقة هى أن هذا الإلحاح كثيراً ما يشاهد فى الناس.

٢١ ـ قد تكون خشيتنا فقد ما نود أن نملك ولم نملكه بعد، ولكنا نأمل ذلك فى المستقبل، أعظم من خشيتنا فقد ما قد ملكناه وتمتعنا به، ولعلَّ هذا من أهم أسباب غيظ المرء واضطغانه إذا نال أحد الناس شيئاً لايملكه المضطغن وقد لا يملكه، ولكنه قد يوهم نفسه أنه ربما حاز بعضه أو كله فى المستقبل، فيخيل له الوهم كأن الذى فاز به قد سلب منه أمراً واختلس منه شيئًا يملكه، وربما كان من البعيد أو المحال أن يملكه حتى فى المستقبل البعيد، فاضطغانه وغيظه مؤسس على وهم الأمانى الباطلة التى تجعل مالايمكن أن يملكه كأنه قد ملكه وسلبه منه الفائز به.

٢٢ ـ عندما نتكلم ونسمع كلامنا، كثيراً ما ننسى أن وقع كلامنا فى آذاننا وعقولنا ونفوسنا قد يختلف اختلافًا كبيراً عن وقع كلامنا فى آذان غيرنا وفى عقول السامعين ونفوسهم، فالأثر الذى نظنه لكلامنا فى آذان غيرنا يكون فى هذه الحالات أثر كلامنا فى آذاننا وفى عقولنا ونفوسنا، وننسى أن السامع قد لايصله كلامنا إلاَّ من وراء حجاب نفسى وعقلى أو جثمانى، كما يسمع المرء كلام من يحدثه من وراء مسقط مائى لجب صاخب، فيصله مختلف المخرج، وقد يختلف معناه فى ذهنه أو يفهم بعضه أو كله على غير ما أراد المتكلم، وهذه حقيقة ينبغى ألا يغفل عنها المتكلمون، ولاسيما من كان معلمًا منهم.

٢٣ ـ إننا إذا قابلنا إنسانًا يحدثنا واتجه عقلنا لسماع كلامه ولفهمه، لانشعر بسرور كالسرور الذى نشعر به إذا اتجه عقلنا إلى أنفسنا، هذا إلاَّ إذا كان اتجاه عقلنا لسماع المحدث لا يشغلنا عن التفكير فى نفوسنا أو كان قصير الأمد أو كان داعيًا إلى التفكير فى أنفسنا وفيما يهمنا.

٢٤ ـ بعض المثقفين من ذوى الأدب والحياء يخجلون ويتحاشون أن يعرف جليسهم وعشيرهم أنهم قد اطلعوا منه أو أن الناس قد اطلعوا منه على زلة بدرت منه أو نقص ظهر فيه. فإذا بدرت من الجليس بادرة سقطة، استحيوا له خشية أن يتأثر بظهور تلك السقطة وهم قد لا يهولون من أمر هذه الزلة، وقد لايعيرونها اهتمامًا، ولكنهم يخشون أن يهتم ويتأثر صاحبها لظهورها منه ويستحيون له أن يجرح ظهورها إحساسه، وهذا منهم من فرط لطافة الحسِّ التى قد تخشى أن يتألم الجليس إذا علم أن الناس قد فطنوا إلى زلته أو سقطته ـ ومن العجيب أن استحياء لطافة الحسِّ هذه قد يُفَطّن الجليس صاحب الإحساس والشك والفطنة إلى أن زلته قد كُشِفَ أمرها، وقد يحقد على من استحيا له، ويعد استحياءه نفوراً من زلته ويغيظه اطلاع صاحب الحياء على سقطته، وقد يكون هذا التحاشى والاستحياء عناء لاطائل تحته إذا كان صاحب الزلة ممن لايهتم باطلاع الناس عليها، ولكنه على أى حال يدل على أن صاحب الاستحياء ليس ممن قلت ثقافة نفسه، فيتتبع سقطات جليسه كى يظهرها ويكيده بها أو يسخر منه بسببها.

* * *

تكملة نظرات مارسيل بروست[1]

من مؤلفاته التى تسمى «ذكرى الأمور الماضية»

- ٩ -

١ ـ بعض المزايا التافهة التى نجدها فى أنفسنا قد لانقيم لها وزنًا ولا نأبه لها، ولكنها قد تزداد منزلة وتكتسب قيمة كبيرة فى نظرنا إذا أحببنا من يهتم لها ويقدرها ويرى لها فضلاً كبيرًا.

٢ ـ بالرغم من ميل النفس إلى التخلص من سيطرة المسيطر عليها فإنها تشعر بخشوع واحترام وإعظام لمن يستطيع ضرها والتحكُّم فيها (فإذا استطاعت التخلص من ذلك التحكم بطل سحر الخشوع والخوف وحلّ محله العداء والسخر، وقد يزداد العداء بمقدار قديم خشوعها وبمقدار خوفها أو حذرها من عودة ذلك التحكم إلاّ إذا كان تحكُّمًا محبوبًا كتحكم المحبوب وأقربائه ومن يلوذ به ويقرب إليه، ومع ذلك فقد يخالط الحب العداء بسبب بين الخشوع والخضوع والذل) وقد يبقى أثر الخشوع بعد السيطرة.

٣ ـ من المألوف أن التفكير فى شىء أو الرغبة فى الحديث والتفكير فى معانى ما سيقال قد يمنعان المرء من سماع مايقال له ـ بل إن كل ذلك قد يمنع من أكثر من ذلك، فيمنع من رؤية الأشياء وتدبرها كأن ما قيل لم يُقل وما رُئِىَ غير موجود، وهذا يذكرنى قول المستر تشرشل فى كتابه فى حرب الدراويش فى السودان: إنه فى إحدى المواقع كان مشغول الفكر يتدبر الموقعة حتى أنه لم يسمع قصف المدافع وأصوات طلقات رصاص البنادق وغيرها من الأصوات فكأنما كان

(١) المقتطف: يولية سنه ١٩٤٨.

ينظر إلى صورة معركة ـ أو إلى السنما الصامتة، ويتفق أن يمر بالمرء صديق يحييه فيغفل عنه وعن تحيته سوادٌ رآه أو لم يره، وماتلك الغفلة إلاَّ من انشغال البال وإعمال الفكر.

٤ ـ إذا حسد الإنسان غيره فإنه يستطيع أن يقنع نفسه أنه لايحسده، بل يحتقره ويزدريه أو يكرهه لعيب فيه ـ كثيراً مايخفى مظهر هذا الحسد عن صاحبه وعن الناس؛ لأنه يتقن التخفى ويتخذ لباسًا من الأمور الممدوحة. والواقع أن المرء يستطيع أن يقنع نفسه بهذه الوسيلة.أنه لايحسد بل يحتقر، وكلما أوغل فى إقناع نفسه استطاع أن يقنع الناس أيضًا. ومن أجل ذلك قد لايفطن المرء إلى حسده لغيره كما قد لايفطن الناس إليه إذا أقنعهم بما أقنع به نفسه.

٥ ـ كنت أرى فى أسرة جرمانتس ذلك التحول الذى ذاع فى عهد لويس الرابع عشر، أى تحول الإحساسات والأخلاق والفضائل إلى مظاهر من مظاهر اللطافة فى المقابلة والحديث والحركات وهى تخفى تحتها خشونة فى الأخلاق والإحساسات أو القسوة وقلة الاهتمام بما يعترى الناس من آلام الحياة، ولا أحسب أن بروست يريد أن يقصر هذه الظاهرة على أسرة أو طائفة أو عصر من عصور الإنسانية، وإن كانت أكثر ذيوعًا فيه وفى طبقة خاصة فإن الأثرة إذا اقترنت بحب ادعاء الفضائل ولَّدت مثل هذه اللطافة الكاذبة إذا وجد المرء فيها إخفاء لحقيقة نفسه، ومن الغريب أن طائفة أخرى من الناس تحاول أن تخفى قسوة أخلاقها وإحساسها بادعاء الصراحة التامة والتهجم بهذه الصراحة الكاذبة فى خشونة تشبع نهمة الأثرة فى النفس، ثم تدعى أن كل ذلك من فضيلة الصراحة.

٦ ـ بعض الناس إذا أدَّيت له معروفًا أو أهديت إليه هدية محبوبة يتملكه السرور حتى يعجز عن النطق بالشكر، فإذا رآه المُهْدى المؤدِّى للمعروف وكان مثقفاً فطنًا حاضر الذهن بصيراً بالنفوس وجد فى عجزه عن الشكر وحيائه فى مغالبة الفرح ماهو أجلُّ من الشكر، أما إذا كان على نقيض هذه الصفات لم يفطن إلى ذلك الاعتراف الصامت بما أدَّى من معروف فيحسب أن من نال

المعروف جاحدٌ للنعمة. ومن أجل كثيراً ما ينشأ سوء الظن وسوء التفاهم والفهم بين الناس.

٧ ـ قد يسمع المرء كلمة فيرى فيها تعريضًا به أو إساءة إليه، ولا يظهر أثر ذلك إلاَّ بعد مضى زمن قد يطول، وقد يظن قائلها أو صانع الإساءة أنها قد نسيت، وإنما يظن ذلك لأن من مصلحة المسيء أو مايراه مصلحة أن ينسى إساءته ولكنها تختمر فى نفس من أسيء إليه وبعض الناس كأن لهم ملكة ينسون بها ويحسبون أن من أساءوا إليهم يحبونهم ويودونهم وقد يظهرون لهم الود ويتحينون فرصة للانتقام والغدر ـ وقد يدهش هذا الذى ينسى إساءته وينعجب؛ لأنه مخدوع بنفسه وبالناس من كثرة نسيانه إساءاته.

٨ ـ الجمال الذى لاتلمحه غير لمحة عارضة مرة واحدة ويغيب عنك قد يكون له أثر فى النفس أكثر من الجمال المألوف، وقد يكون التفكير فيه أكثر والشغف به أعظم وأتمّ، ومن الغريب أنه قد لايشغف النفس إلاَّ بعد غيابه، وقد لايكون له غير أثر ضئيل فى نشأة الدافع النفسى المُلحّ الذى يدفع إلى التعلق به وإلى استعادة ذكراه والحنين إليه، والواقع هو أن أكثر أحاسيس الحب وصور المحبوب من العاشق نفسه لا من المعشوق.

٩ ـ إن عقولنا دائمًا تنسى من أحوال من نعرفهم ومن صفاتهم وأمورهم مالا يتفق وحاجاتنا الحاضرة التى نباشرها، فإذا تغيرت تلك الحاجات والرغبات والنزعات فإننا نتذكر ما نسينا ثم ننسى مايتفق ورغباتنا الجديدة، وهذا مظهر من مظاهر القاعدة السيكولوجية العامة التى ذكرها فرويد فى كتاب ـ العلل النفسية فى الحياة اليومية ـ أى أن النفس تستطيع أن تنسى عمداً ما ترى فى نسيانه نفعًا أو زينة، وقد كان فرويد يتحدث عما تنساه من أمورها وبروست يتحدث عما تنساه من أمور الناس.

١٠ ـ إذا وجدنا فى أول عهدنا بمعاشرة بعض الناس شيئًا مما نكره ونبغض فإننا بعد أن نألفهم وتزول الوحشة وبعد أن يخفى عنا بسبب ذلك ما كرهنا فى أول لقاء وعشرة لانزال نشعر فى صميم النفس بشيء من القلق توَقُّعًا لعودة ظهور

ذلك الأمر القديم المكروه فيكون سرورنا بلقياهم ممزوجًا بخشية رجوع مالانود منهم ـ وهذا يصدق أكثر مما يصدق فى ذوى الإحساس والخيال والذاكرة القوية أو فى ذوى الحذر الذين يبالغون فى الحيطة من الناس، ولكن الواقع هو أن المرء يحاول أن ينسى عن أصدقائه مالايتفق ونزعاته الحاضرة، كما قال بروست فى النظرة السابقة.

١١ ـ بعض السرور لايلتذه المرء وقت حدوثه، وإنما يلتذه بذكراه وكأن صورة السرور التى حصل عليها عند حدوثه هى الصورة الفوتوغرافية السوداء التى تؤخذ إلى حجرة مظلمة وتستخرج منها الصورة الواضحة وكذلك بعض السرور يحتاج إلى حجرة النفس المظلمة أو وعيها الباطن كى تستخرج منه صورته الواضحة ـ وقد يصدق هذا أيضًا فى أسباب الحزن والإساءة.

١٢ ـ كنت فى سذاجة الطفولة والصغر أحسب أن المتحابين المتآلفين تخطر فى نفوسهم خطرات متجانسة وإحساسات متشابهة فى وقت واحد من صفاء الألفة والمحبة وتختلج فى نفوسهم النزعات المتقاربة والرغبات المتفقة فى وقت واحد، ولكن الحياة علمتنى أن هذا قلما يكون، وأن أكثره من وهم المحبة وخيال الألفة، وأن الواقع يخالفه؛ فإنى عندما كنت أذكر أبوى بحنان وعطف يتضح لى أنهما كانا يتذكران ذنبًا لى نسيته، وأنهما يريدان أن يؤنبانى أو يعاقبانى، وعندما كنت أحس بالحاجة إلى الائتناس بمحادثة صديق عزيز أرى به مللاً من المحادثة.

١٣ ـ العاقل المثقف ينتقد الرجل الذى يظهر مايعرف من غير ضرورة البحث العلمى، بل على سبيل المباهاة والمفاخرة، ولكن للنفس حالات تغرى ذلك المهذب المثقف أن يباهى بعمله فيصنع الشىء الذى ينتقده، ولعلَّ امتعاض النفس من الذى يباهى بعلمه من مظاهر الأثرة فيها فى أكثر الأحايين، وإن كانت المباهاة بمايعرف المرء منتقدة فى كل إنسان إذا لم تكن هناك ضرورة البحث العلمى.

١٤ ـ إن من لهم منزلة اجتماعية كبيرة لا يتكلفون غير طبعهم وعاداتهم إلاّ مع من هم دونهم، وبالعكس ترى من هم دونهم لايتكلفون إلاَّ مع من هم فوقهم منزلة.

١٥ ـ كنت فى غرارة الصبا ينطبع فى عقلى حديث الناس وادعاؤهم المودة، وكنت أرى كل ذلك حقيقة لاريب فيها، فما كان يخطر ببالى أن إنسانًا يكذب ويقول أنه يودنى وهو لايودنى، فكنت فى هذا الأمر كخادمتى فرنسواز التى كانت كلما رأت إعلانًا عن دواء يشفى كل الأمراض أو أكثرها آمنت به وما كان يخطر ببالها أن التاجر الذى يبيع الدواء دجَّال يريد الكسب؛ وكان ينبغى أن أعرف أن الناس لايقولون الحق دائمًا، وأن ملامح الناس وحركاتهم وسكناتهم وهيئة تقاسيم أوجههم أدَلُّ على الحق من كلامهم (ولا أذكر هل كان فولتير أم تالبران هو الذى قال: إن الإنسان خلق له النطق كى يُخفى به الحق، ولعلَّ ذلك القول من فكاهات الأول منهما)، ومما كان أدى إلى تعريفى كذب الناس أنى كنت مثلهم أقول غير ما أخفى، ولكن كيف كنت أنتفع بالمثل الذى أعرضه بنفسى على نفسى إلا إذا اعترفت أنى أنافق وأكذب. والإنسان كثيرًا ما ينافق ويكذب من غير إدراك لهذه الصفات ومن غير تَنَبُّه إليها، إمَّا دفاعًا عن النفس، وإما لنيل غرض عارض، وإما لإشباع عاطفة، وهو يفعل ذلك وذهنه منصرف إلى أمور أخرى، فيسمح لأخلاقه التى فى حضيض نفسه بالتخلق بها من غير رادع أو بصيرة متنبهة تبصره بها.

١٦ ـ كانت خادمتى فرانسواز تحبنى، ومع ذلك فقد علمت أنها قالت إنى لاأستحق ثمن الحبل الذى يجب أن أشنق به، فراعنى قولها، ولاسيما أنها هى التى كانت تلفتنى وتفطننى، إلى نفاق أصدقائى، فقولها هذا جعلنى أشك فى حقائق الأشياء كلها، وقلت إن الأشجار والشمس والسماء لعلها ليست كما نراها، أو ربما يراها على أشكال أخرى من يراها بعينين غير عينى الإنسان، أو من يراها بجهاز طبيعى آخر غير العينين: فقد يرى هذا ماهو عوض عنها وبدأت أشك فى أننا نعرف الناس معرفة واضحة، بل بدأ يخيل لى أن مايقوله كل إنسان أو يعمله إنما هو ظل نرى خلفه شعاع الحب أو لهيب الكره، ولنا مُسوِّغ إذا رأينا هذا أو ذاك، وفطنت إلى أن مزايا الإنسان وعيوبه وإحساساته ومقاصده ليس

لكل منها مظهر واحد ثابتٌ محدود ـ والإنسان بالرغم من ذلك يحاول أن يبسّط الحياة والنفوس فيلبسها لباسًا واحدًا ذا لون واحد كما فعل رتشارد الدنجتون فى قصة ـ الناس كلهم أعداء ـ فإنهم حتى لو صحَّ حكمه لابدَّ أن يأتدِموا بشيءٍ من المودَّة كى يسيغوا خبز الأحقاد والتحاسد.

١٧ ـ ومهما كان للإنسان من شخصية مستقلة فإنه جزء من جماعة أكبر يتأثر بها فى أسلوبه وصوته وحركاته وعاداته وعباراته وآرائه. وشخصيتُه مكتسبة من شخصيات كثيرة ومتصلة بها اتصال عجلات الساعة ومختلطة بها اختلاط مواد الكيمياء.

١٨ ـ إن الإنسان ينمو نمو النبات لانمو البناء، والنبات ينمو من داخل نفسه والبناء ينمو من خارجه بأن تضاف طبقة على طبقة ولبنة فوق لبنة، نعم إن النبات يستمد الماء والضياء والهواء، ولكن مايستمده منها لابد أن يمتزج بكيانه، أما الذى يحاول أن ينمو نمو البناء فلا يزداد بما يضاف إليه، لأنه لم يمتزج بكيانه كما يمتزج الماء والضياء والهواء بكيان النبات.

١٩ ـ مباهج غضارة الصبا ومحاسن نضارته تكون قبل أن يتحجر وجه المرء، أى يكون شبيه المتحجر بسبب مكافحة الحياة وأثقالها وعاداتها، فنرى وجه الصبا يتغير ويعطى الرائى مناظر مختلفة تتغير مثل تغير مناظر الطبيعة، فإذا فارقه الصبا قلما يكون إلاّ متحجرًا فتمل رؤيته. (ويختلف تغير مناظر الوجه حتى فى الصبا فإن بعض الوجوه تُسجّل على تقاسيمها ما يجول فى خاطر أصحابها من أفكار وخواطر وإحساسات تسجيلاً واضحًا عظيمًا، فإذا جمع الوجه إلى هذه القدرة على التسجيل الجمال كان لاتمل رؤيته، وقد أدهشتنى مرة قدرة وجه إنسان على تسجيل الخواطر حتى كان وجهه يعرض صورة تختلف فى كل لمحة ولحظة، وحتى خُيِّل لى أن وجهه يسجل مافى وعيه الباطن كأنه يدركه بالوعى الظاهر، وخُيِّل لى أنّه أناس كثيرون لا إنسان واحد، وهذه القدرة على تسجيل الوجه لخواطر النفس تلاحظ حيث يكون الذكاء والإحساس المرهف).

٢٠ ـ كما أن القائد يحاول معرفة أماكن الضعف فى جيش عدوه كى ينتصر

عليه من نواحيها، يتعرَّف الخدم أماكن الضعف فى صفات المخدوم كى يعززوا مراكزهم من نواحيها، ومن أجل ذلك كنت أعرف وأدرس أوجه النقص فى صفاتى بدراسة سلوك خدمى نحوى: ترى هل من المستطاع تطبيق هذه القاعدة فى قصة المأمون الخليفة العباسى الذى أكثر من مناداة غلام خادم والغلام غير آبه، ثم لماضجر بمناداة الخليفة له قال: أفى كل حين ياغلام ياغلام؟ أما ينبغى للغلام أن يستريح؟ فتعجب أحد ندمائه، فقال المأمون: إذا حسنت أخلاق المخدوم ساءت أخلاق الخادم، وإذا ساءت أخلاق المخدوم حسنت أخلاق الخادم، ونحن لانرضى أن تسوء أخلاقنا كى تحسن أخلاق خادمنا.

٢١ ـ للخدم ماهو شبيه ببريد سرى تنتقل به الأخبار من أسرة إلى أسرة بسرعة البرق، كما تنتقل الأخبار فى مجاهل إفريقيا بسرعة البرق من قبيلة إلى قبيلة (إما بدقات الطبول وإما بإشارة النار). ولقد كانت دهشتى عظيمة من معرفة خدمى صلاتى بأصدقائى وإحساسهم نحوى قبل أن أعرفه وأستوضحه، وما كان ذلك إلاَّ لأن الخدم يلتقطون الكلام أو يسترقون السمع خلسة. ومن كلمات قليلة ولمحات أوجه المخدومين يستطيعون أن يعرفوا ما يريدون كما يستطيع العالم بعلم الحيوان أن يعرف من فحص عظام قليلة كيف يكون الهيكل العظمى للحيوان وهو تام كامل. (ومما يساعد الخدم أن بعض المخدومين ينزلونهم فى نفوسهم عن مرتبة الإنسان، فلايتحرجون من الكلام أمامهم كما لايتحرجون من الكلام أمام الخيل أو القطط أو الكلاب) إلاَّ إذا تعمدوا إسماعهم ما يريدون إذاعته لنكاية غير مباشرة.

٢٢ ـ يخيل للمرء أولاً إذا سمع العصافير أن صوتها كلها صوت واحد لايتغير، ولكن الذى يحب العصافير ويكثر من سماعها فى الغابات يستطيع تمييز أصواتها، فيعرف صوت البلبل ويميزه من صوت القنبرة أو غيرها، وكذلك لايستطيع أن يميز اختلاف دقائق محاسن الجمال ومباهجه إلاَّ من أحبه وألفه. (وهذا أيضًا مشاهد فى اكتساب القدرة على تمييز اختلاف الوجوه أو الصفات وإن كانت الصفات، النفسية زئبقية متقلبة، وقد ينزل المرء فى أمة نائية فيخيل له أن أكثر أهلها يتشابهون تشابهًا تاما إذا كان لم يألف وجوههم من قبل كما يخيل

للمرء هذا التشابه التام فى أوجه الصينيين أو اليابانيين، فإذا ألفهم استطاع أن يميز الصفات المختلفة).

٢٣- قد تنبع من الوعى الباطن ذكرى مباغتة، فلايعرف المرء لماذا ظهرت وتغلبت على باقى الذكريات المنسية التى رسبت بسبب ضغط عدم المبالاة بها الموزع عليها جميعًا على السواء. وكذلك قد يتذكر المرء صورة من يود بغتة، ولايعرف سبب تذكرها ولايستطيع أن يصل هذه الذكرى بذكرى أمور أخرى تبعثها، فلا تعليل لذلك إلاَّ أن للوعى الباطن حياة مستقلة توحى بأمثال هذه الذكريات، على أن بعض ما يتذكر قد يكون تذكره لأسباب تافهة موصولة بها، كأن يشم المرء رائحة، أو يرى أو يلمس شيئًا تافهًا كان قد طرده المرء من وعيه الظاهر لتفاهته فلم يستهلك مجهودًا من نفسه فيعود إذا عاد قوى الأثر، وكثيرًا ما يخطئ المرء فيخيل له أن تذكره صورة من يود ناشئ من أن ذلك الذى يود يتذكره فى تلك اللحظة، فيحدث الاتصال الروحى (وليس معنى هذا أن الاتصال الروحى عن بعدٍ محال باطل).

٢٤ - كثيرًا ما يتغير شكل الإنسان وتتغير صورته فى نظرنا بسبب عوامل فى نفسه، وننسى أن هذا التغير قد يكون أيضًا بسبب اختلاف إحساسنا نحوه، فنتعجب من تغير صورته، ونحن نسبب التغير أو قد يكون السبب النظر إليه من جهات مختلفة أو فى بيئات متغايرة كما تختلف مظاهر المبانى إذا نظرت إليها من جهات مختلفة.

٢٥ - أنا بين طائفتين من المعاشرين: طائفة أمنت اغتيابهم لى، لامن سلامة طويتهم وصدق إخلاصهم، بل لقلة مبالاتهم واهتمامهم بأمرى، وقلة اهتمامهم تظهر حتى فى أحاديث مجالسهم فى حضورى، وفى نظراتهم وفى أصواتهم وملامحهم، والطائفة الثانية يتلقانى آحادها بالمودة والحنان والعطف، ثم إذا غبت يأخذون أجرًا على ذلك باغتيابى إذا غبت، ومجالسة الطائفة الثانية أكثر راحة، (وإن كانت راحة قد تكون محاطة بالقلق إذا فطن جليسهم إلى عواقب ائتناسه

بهم من اغتيابهم إياه إذا غاب، والواقع أن آحاد الطائفة الثانية يتقنون مظاهر المودة إتقانًا عجيبًا حتى ليدهش المرء الغريب إذا رآهم يغتابون جليسًا انصرف عنهم أشنع اغتياب، بعد أن تلقوه بالترحيب والعطف والثناء والإخاء).

٢٦ـ قال لى برجوت: لاداعى لأن يحزنك مرضك؛ فإنه لايمنعك من لذات الفكر، قلت: بل يمنعنى، فنظر إلىَّ وقال: أنا واثق أنه لايمنعك، فأحسست بسرور، بالرغم من أنى لم أقتنع. ولهذا السرور أسباب كثيرة منها لذة الإيحاء وقبول النفس له بالرغم من مظاهر عدم الاقتناع، والشعور بعظمة من يتمتع بلذات الفكر، وفى هذا الشعور لذة، ولذة التمتع من قبول رأى سار يريد أن يصدقه؛ فإن فى هذا التأبِّى والتمنع لذة ورغبة فى أن يُرَدَّدَ له. ولذة المغالطة إذ ما من شك أن بروست كان يتمتع بلذات الفكر وإنما عدم اقتناعه مغالطة منه. ولذة فى مباشرة أمر سار أو متعة بريئة يخفيها كى يحتال الناس لمعرفة مايخفى، ولذة فى الرثاء لنفسه من عدم القدرة على التمتع بلذات الفكر كما يدعى إلخ.

٢٧ ـ إن إحساسات المرء وخواطر نفسه لاتتبع دائمًا نظام تاريخ حياته، فهو وإن كان عائشًا بظاهر حسه فى الزمن الحاضر، فإنه قد يكون عائشًا فى الحقيقة بإحساسه وخواطر نفسه فى عهد قديم مضى من حياته قبل حوادث أمس واليوم.

٢٨ ـ قد يبدى المرء شيئًا من السخر ممزوجًا بالاحترام إذا واجه نوعًا من العظمة يرى أنه من قلة الذوق وقبحه أن يزدريه، ومن الحماقة أن يحتقره، ومن حسن الذوق والفطنة الإشارة إليه بشىء من الدعابة الممزوجة بالاحترام. وبذلك يرضى أثرته كما يرضى مايحب أن يعرف به من حسن الذوق والتمييز والفطنة.

٢٩ ـ قد يدعو المرء إنسانًا لزيارته على سبيل المجاملة وهو يُسَرُّ لو أن المدعو لايقبل الدعوة، ويفرح لو أغفلها، فتأتى الدعوة فاترة ممزوجة بما يشير إلى رفضها وهكذا دعا سنت لوب بلوش لزيارته قائلاً: (ولكنى قلما أكون موجودًا) كى يظهر أنه غير جادّ فى دعوته. ولكن بلوشَ بالرغم من هذا التنبيط الظاهر صار يمدح تلطف سنتّ لوب ويقول (بعد هذا التلطف منه ينبغى أن نزوره عاجلاً وإلاَّ كان امتناعنا عن زيارته أو تأخيرها خارجًا عن حدود اللياقة) وغضب منى لأنى

لم أوافقه ولم أحدد ميعاداً لتلك الزيارة، وما كان يمكننى أن ألفته إلى أن صيغة الدعوة دليل على الرغبة فى رفضها.

٣٠ـ للجفاء أسباب عديدة منها خشية المحب أن يظهر حبه فيتغاضب ويدعى الجفاء (ومن الناس من يتغاضب ويدعى الجفاء أمام الناس كى يعرفوا أنه يستطيع أن يعامل إنسانًا يفوقه بمظاهر الغضب أو الجفاء أو بلهجة الأمر).

٣١ـ أعز الحكمة وأثمنها التى نقتبسها بأن نعيش ونتغلب على زلاتنا، وليست هى التى تلقن بالتعليم أو الأمر، وإنما صاحب الثانية كالعبد الذى يعمل الصواب كما أُمرَ، ولافضل له فى صوابه.

٣٢ـ كان «لجراند» عندما يكون فى صحبة مدام ف. يتحرك كأنه لعبة تحركها السعادة كما يحرّك الأطفال لعبهم التى لاحياة فيها، وبعض الناس إذا استسلموا للسعادة العارضة كانوا أشبه الأشياء بتلك اللعب؛ لأنهم لاسيطرة لهم على حركاتهم وأعضائهم.

٣٣ـ مما يدل على أن آراء الناس وفق رغباتهم وميولهم أن المرأة من العامة إذا تلطّفت معها امرأة نبيلة غبية قبيحة الوجه والشكل تنسى غباوة المتلطفة وقبح وجهها، ولا تفتأ تذكر ذكاءها وفطنتها وحسنها، وكذلك قد يتلطف الرجل مع من هو أقل منه منزلة تلطفًا ممزوجًا بالزهو والخبلاء الكامنين، فينسى هذا عيوب الرجل المتلطف معه، وقد يصفه بأضدادها من المحاسن.

٣٤ـ فى بعض الأحايين إذا توقع المرء حادثًا فى حياته مستقبلاً يخيل له أن حياته كالمسرح الذى يمثَّل عليه فصل من القصة، بينما تعد معدات الفصل التالى وراء ستار خلفى.

* * *

نظرات ميشيل مونتانى[1]

- ١٠ -

ميشيل مونتانى هو الأديب الفرنسى صاحب الرسائل المشهورة، وكان ثمرة من ثمرات عصر إحياء العلوم فى أوروبا، كان من أسرة نبيلة، وولى القضاء وصار حاكمًا لإحدى المدن فترة من الزمن، ولكنه قضى أكثر حياته فى قصر أجداده بين الكتب، وكانت القراءة وكان التفكير والتأمل فى صفات النفوس، أحبّ شىء إليه فى الحياة مع أنه أخذ نصيبًا من كل مباهجها، فإنه كان يحب الحياة شأنه فى ذلك شأن أدباء عصر إحياء الآداب والعلوم، ولكنه كان يفضل القصد فى كل الأمور، ويرى أن الخطة الوسطى هى مفتاح السعادة، فلم يكن متهالكاً على اللذات كما تهالكَ عليها كثير من الأدباء بعد عصر الترهب والتقشف، ورفض الدنيا والخشية من متعها. وكان يقول بتحكيم العقل، ولكنه كان يَحْذَر الاغترار بأحكامه، وكان يعرف قصوره وأنه داعية إلى الكبر والغرور. ورسائله تدل على اطلاع كبير على أدب القدماء وعلمهم، ولا غرابة فى ذلك؛ فإن أباه كان قد قضى عليه أن يتعلم اللاتينية فى سن الطفولة. وله آراء كثيرة كآراء المعاصرين لنا، مثل رأيه فى اجتماع الشخصيات العديدة فى النفس الواحدة، ورأيه فى أنَّ الغريزة فى الحيوانات هى فى الحقيقة نوع من العقل ومظهر من مظاهره، ورأيه فى أن التفكير المؤسس على التجربة أصدق من التفكير المؤسس على النظريات العامة التى تعتنق أولاً ثم يحاول صاحبها إثباتها بعد ذلك بما يشاهد، وهو على اعتزازه بحكمة القدماء يرى أنَّ المشاهدة والملاحظة والتجارب أهمّ منها، ولكن مما لاشك فيه أن دراسته لكتب القدماء كانت رياضة صالحة لعقله مكنته من الانتفاع بالتجارب

(١) المقتطف: أغسطس سنه ١٩٤٨.

والملاحظة، وكان يرى أن الاقتناع بالآراء والعقائد لايكون بالقهر والقسر، ولذلك كان ينعى على الطوائف الدينية فى عصره حرق بعضهم بعضًا وقتال بعضهم بعضًا، ولذلك كان يقول لهم إن آكلى اللحوم البشرية أرأف منهم وأكثر إنسانية. وقد كان معتدلاً فى نقد الآراء المقررة، وكان على اعتداله وتحفظه صريحًا فى بعض رسائله، وكانت لمونتانى آراء جديدة فى التربية مؤسسةً على تجاربه ومشاهدته، وربما كانت كما يقال (رد فعل) بسبب ما ألزمه أبوه فى صغره، وكانت دراسته النفس البشرية فى رسائله وسيلة من وسائل التربية، كما كانت ذريعة إلى السعادة ولذّات الفكر، وكان ذا رأفة كبيرة بالحيوانات والطيور، ولاغرابة فى ذلك بعد أن رأيناه ينسب إليها العقل، وكان يرى أنها أكثر شبهًا بالإنسان فى إحساسه وعقله مما يظن الإنسان: وقد ترجمت رسائله عقب نشرها إلى لغات كثيرة، وكان الأدباء مولعين بقراءتها وتدبر أوصاف النفس فيها، فكانت لشكسبير الشاعر الإنجليزى نسخة منها ـ وقد ذكر مونتانى فى بعضها أنه يفضل من الكتب تلك التى لايرتبط فى قراءتها بإتمامها دفعة واحدة بل يتنقل فيها ويغادر القراءَة متى شاء ويعاودها متى أراد، وهذه كانت خطته فى كتابة أكثرها؛ فإنه فى الرسالة الواحدة ينتقل من موضوع إلى موضوع يتصل بالأول ويوحى به ذلك الموضوع الأول.

ومن نظراته مايلى:

١ ـ إذا كان المرء أقدر على الفكر وأدقّ فيه نظرًا وأبصر بمسالكه وحيله وعرف الناس منه ذلك فإنهم يكونون أسرع إلى كرهه وأعجل إلى بغضه؛ خوفًا من قدرة عقله أن تصيبهم بسوء وأن تعاجلهم بشر، ولاسيما إذا ظنوا فيه نقصًا فى الأمانة والنزاهة، أما إذا كان غير قادر على الفكر فإنهم قلما يختصونه بمثل هذا البغض حتى ولو كان سيئ الخلق، فالناس يخشون أن يستخدم المرء فكره فيما يسوءهم ويضرهم، سواءٌ أكان أمينًا أم كان غير أمين، وهذا سبب من أسباب كره جمهور الناس لذوق الفكر ـ وهم فى هذه الحالة ينسون أن الغنى الماكر قد يبلغ بمكره من أذاهم مالا يبلغه المفكر.

٢ ـ بعض الناس يتعلم المنطق كى يخالف به أصول المنطق والحق، وكى يقنع الناس بالباطل، وهو كالذى يتعلم القوانين كى لايتقيد بها وكى ينجو من قصاص

خرق سياجها؛ لأنه بتعلُّمها يعرف منافذها ومخارجها وأبواب نقصها وحيل التهرب منها، وكذلك نرى أناسًا يتعلمون المنطق لمثل هذه الغاية فى تلبيس الحق على الناس، على أن أكثر من يتعلم المنطق كى يطبقوه على الحياة بحسن نية، يعجزون عن تطبيقه تطبيقًا صحيحاً بسبب غلبة الطباع والنزعات النفسية والشهوات والرغائب والمطامع، فالمنطق الصحيح كثيراً ما يكون مهجوراً منبوذًا فى الحياة سهواً أو جهلاً أو عمدًا أو مخادعة من الطبع للعقل، ولولا هذه الموانع لكان نفعه للناس فى الحياة أعظم وفائدته أتم، ولكن المرء كثيراً ما يعتنق الرأى أولاً ثم يتخذ من المنطق ما يسوِّغه.

٣ ـ قد تكون للإنسان ميول نفسية مستترة وصفات لايفطن لها، ولكن جسمه قد يدل عليها، فقد كان شيشرون الخطيب الرومانى به ميل شديد إلى السخر يظهر منه وإن أخفاه بدلالة تجعُّد أنفه وتقلُّصه، وكان الإسكندر المقدونى والكبياديس الأثينى معجبين بجمالهما، وكانت دلالة هذا الإعجاب فى جسم الأول أنه يميل برأسه زهواً، ودلالته فى جسم الثانى لثغة بها أنوثة فى كلامه، وقس على ذلك باقى الصفات المستترة. وقد يحاول المرء أن يخفى الحسد أو الحب أو البغض فينمُّ عليه جسمه، ثم يتعجب إذا نسبت إليه هذه الصفات.

٤ ـ قد يظن بعض الناس أن الكذب صفة مقصورة على الأراذل والأوغاد والأنذال، ولكن الحقيقة هى أنها صفة عامة شاملة، فإنا نجد كثيراً من الأخيار الأفاضل الذين تكاد لاتجد فيهم عيبًا آخر بارزًا لايتورعون من الكذب، إما على سبيل العمد أو المغالطة للنفس.

٥ ـ بعض الناس قد يتعوَّد الكذب حتى لايستطيع أن يَصدُق وإن كان الصدق منجيه من ضرر أو تلف. وهذا من غرائب تحكُّم العادة إذا توهم المرءُ أن الكذب هو الذى ينجيه كما تعوَّد أن ينجو بالكذب فى حالات، فيحسب أنها قاعدة مطردة حتى ولو بدا أن الصدق منجيه فإنه يشك فيه ويحذره. وتحكُّم العادة يذكرنى قصة رجل ممن يعرضون أعمال المهارة فى إصابة الهدف كان يوقف امرأته أمام جدار من الخشب ويرسم حول جسمها خطا ثم يقذف بالـمُدى من مكان بعيد بعض البعد فتصيب الـمُدَى هذا الخط ولاتمس المرأة ولا تجرحها، واتفق أنه نقم

على امرأته وأراد أن يقتلها قتلاً يظنه الناس خطأ فى إصابة الهدف من غير عمد، فصار يرمى بالمدية إثر المدية فلا يستطيع أن يصيبها ولكنه يصيب الهدف الذى تعوَّد أن يصيبه، وذلك من حكم العادة، ولعلَّ عاطفة فى صميم نفسه كانت أيضًا تمنعه من قتلها، وإن كان لم يفطن إلى عاطفة الحب أو الرحمة المستترة وفطن إلى عاطفة حب الانتقام الظاهرة، ولعلَّ اعتزاز نفسه بفنِّ إصابة الهدف، منعه من أن يتكلف الخطأ بإصابة زوجه، مهما حاول ذلك.

٦ ـ فى بعض الأحايين يدفع الخوف الإنسان إلى الانتحار خوفًا من الأمر الذى يتوقع ضرره، وإن كان ذلك الضرر أهون من الموت، وقد ينتحر المرء خوفًا من الموت فى أى شكل من أشكاله، فهو يموت من خوف الموت، وهذا يدل على أن الخوف أشد على النفس من الموت، ولا أخاف من شىء قدر خَوفى من الخوف، فإن للخوف عدوى وأخذة وبغتة وإلحاحًا، وقد يخاف المرء حتى مما هو عونٌ له على الخوف، ومنجاة له منه. وإذا لم يدفع به الخوف إلى التهلكة فقد يدفع به إلى الجنون أو إلى الأقدام على مايخشى ويخاف، وقد يسرى الخوف فى أهل المدينة الواحدة فيقاتل بعضهم بعضًا من سوء الظن وتَوَقُّع الأعداء، وكل منهم يظن أنه يقاتل العدو المخوف الذى بغتهم، وخوف المرء من الألم قد يكون أشد من الألم، وخوفه من حوادث تصرف الأقدار وانشغال باله بذلك الخوف قد يكون أشد من تلك الحوادث، وقد تسرى عدوى الخوف فى الجيشين المتقاتلين فيفر كل منهما من الآخر، كما حدث فى بعض وقائع الحروب المعروفة فى التاريخ. وهذا يذكرنى بما ذكره (هازليت) فى إحدى رسائله من أن فتاة تُركَت فى حجرة مغلقة بها جثة فلج بها الذعر والرعب، حتى أقدمت على ماتخشاه، فعانقت الجثة وماتت من الهلع والذعر، ويذكرنى بقصة أظن أنها فى كتاب من كتب (أناتول فرانس) عن رجل من أهل مدينة ذهب إلى الريف ونزل فى نُزُلٍ صغير، ولأمر ما ذاع بين الريفيين أنه فوضوى جاء من المدينة كى ينسفهم بالقنابل، فصدقوا الإذاعة الشائعة وتسللوا إليه فى خفوت وسكون فى جنح الليل كى يقبضوا عليه مباغتة قبل أن ينسفهم بالقنابل، وكانوا يرتعدون وهم يتقدمون خلسة نحو حجرته ويفرون عائدين كلما ظنوا أنهم سمعوا صوتًا، وكان

الرجل قد أحسَّ بهم فظن أنهم لصوص جاءوا ليقتلوه، فسرى الرعب فى نفسه وفى أوصال جسمه وجعل يرتعد من الخوف وعندما فتحوا الحجرة وجدوا أنه مات من الرعب. ويذكرنى قصة (الجبان) لجى دى موباسان. وهى قصة رجل صفع آخر فدعاه المصفوع إلى المبارزة، فاشترط الصافع ألا تقف المبارزة إلا بعد جرح أو موت أحدهما، ولكنه عندما خلا بنفسه فى بيته، وجد جسمه يرتعد ويرتعش وخاف أن يغمى عليه أمام أصدقائه وخصومه إغماءة الخوف فيفتضح ويُعرف بالجبن ويلحقه العار، فانتحر خوفًا من ظهور خوفه ودلالاته أمام الناس. وأتذكر أيضًا ما يسمى بالفزع الأكبر أيام الثورة الفرنسية، إذ أن الفزع قد يعم فى عهد الثورات، وقد يكون معينًا عليها فكثيرًا مايقسو المرء من الخوف. ومن عجائب الخوف خوف عبد الله بن الزبير وهو من الشجعان، ولكنه لما رأى أن الغلبة ستكون لجند بنى أمية استشار أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات الطبيين فى أن يستسلم، فقالت له: عش كريمًا أو مت كريمًا وحثته على القتال، فقال: إنه يخشى إن يُمثَّل به أعداؤه بعد موته، فقالت: لايضير الشاة سلخها بعد موتها. والواقع أن الإنسان كثيرًا ما يغم نفسه بأمور وحوادث مختلفة قد تحدث بعد موته، ومن الشجاعة حقا قول الأستاذ (هالدين) الإنجليزى فى كتابه (تفاوت الناس) إنه اتفق وزوجه أن تُهْدَى جُثَّتاهما بعد موتهما للمستشفى للتشريح كى يستفيد البحث العلمى وتستفيد الإنسانية. وهذا يذكرنى قصة إهداء الشَّنْفَرى الشاعر جثته بعد موته للوحش كى تنعم بأكلها، وذلك فى قوله:

إذا قطعوا رأسى وفى الرأس أكثرى ... وغُودر عند الملْتَقى ثم سائرى

فلا تدفنونى إنَّ دفنى مُحَرَّمٌ ... عليكم ولكنْ أبْشِرِى أُمَّ عامر

ويعنى بأم عامر الضبع - ومن فكاهات الخوف قصة الجبان الذى يدَّعى الشجاعة مثل قصة ترْتَرَنْ التَّرَسْكونى لمؤلفها ألفونس دوديه، وكان ترترن يدعى مغالبة الليوث والوحوش مع أنه كان يخشى حتى الأسفار وركوب البحر، ولكن من الأغاليط المألوفة أن يحسب الناس كل من يدعى الشجاعة ويتوعد كى يخيف، جبانًا. حقيقة أن بعض الناس يخفى جبنه وخوفه بادعاء الشجاعة،

ولكن المفاخرة بها قد تكون مفاخرة بحق كما أثبت شارلز لامب فى رسائل (الأغاليط المشهورة) ولامبروز بيرس فى قصص الخوف من الجثث والأفاعى المحنطة خوفًا أدى إلى الهلاك.

٧ ـ قد يكون قبول المرء للأكاذيب من السذاجة الفطرية التى تفترض الصدق فى نفس محدثها، وقد يكون ذلك القبول من الجهل، وهو عيب العامة، أما عيبى فهو عيب المتعلمين، فقد أبالغ فى تكذيب مالم يقم دليل حسى على صدقه ولا أكتفى بأن أقول: إنه لم يقم دليل حسى على صدقه، بل أقطع ببطلانه واستحالة كونه، كأن الكون يقاس بملكات الإنسان وهو غير محدود بحدود فكره ونفسه. وقد فطنتنى الخبرة إلى أن المادة لا المعرفة هى التى تزيل غرابة الأمور، ولولا اعتياد الإنسان الحقائق المألوفة لقطع ببطلان مالم يتعوَّد منها. وهذا يذكرنى الدكتور صمويل جونسون، وهو أديب أريب، ولكنه كان يكذب البحارة بعنف إذا حدَّثوه عن بعض الظاهرات الطبيعية التى تحدث فى البحار مثل ارتفاع مياه البحر فى شكل نافورة فى بعض مناطق الضغط الجوى المنخفض، وكان يقطع ببطلان قولهم ويعده من الأساطير والخرافات التى أولع بها أهل الرحلات من قديم الزمن، ولكن من غرائب خصال النفوس أنه كان يسرع إلى تصديق أمور أخرى مما يصعب إثباته. وقد يكون للخداع فيه سبيل. وقال مونتانى: (ينبغى للإنسان أن يعرف أن الحياة والعالم كتاب لا آخر له) أى لايستطيع تقصيهما بالمعرفة.

٨ ـ قد تتبدَّل وتتغير صفات النفوس الغالبة حسب أحوال الحياة ودوافعها: فإن نيرون الأمبراطور الرومانى الذى اشتهر بالطغيان وسفك الدماء كان فى أيام شبابه قد طُلب منه إمضاء حكم الإعدام على أحد الأشقياء، فقال آسفًا: وددت لو أنى لم أتعلم الكتابة ـ وهذا يذكرنى روبسبيير زعيم الثورة الفرنسية الكبرى فإنه كان فى صباه قاضيًا فى محكمة أراس، ولكنه استقال من منصبه كى لايمضى حكم الإعدام فى رجل، وبعد ذلك كان خطيب حكم الإرهاب، وأرغم النواب على إقرار قانون يجيز للمحكمة الثورية أن تحكم بالإعدام من غير سماع أقوال المتهم أو شهوده أو دفاع عنه ومن غير مناقشته، وهو الذى كان فى صباه

يرفض الحكم بالإعدام، حتى إعدام المعترف بجرمه أو الذى فحصت الأدلة وثبت جرمه بعد البحث ومع ضمانة العدالة فى المحاكمة.

٩ ـ اختلاف الميول النفسية والنزعات فى النفس الواحدة، حمل بعض المفكرين على أن يروا فى كل إنسان أكثر من نفس واحدة، ولكن المفكرين الحديثين يقولون شخصيات لانفوسًا، وقد لوحظ انفصال الشخصيات فى النفس الواحدة فى أوقات مختلفة بسبب حوادث أو أمراض، وعلى هذه الحقيقة أسس ستيفنسون القصصى البريطانى قصته المسماة (الدكتور جيكل والمستر هايد) والأول من أهل الخير، والثانى من أهل الشر والإجرام.

١٠ ـ من أصعب الصعاب أن نقطع بأننا قد عرفنا الحق الذى لاشك فيه مادامت حواسنا وملكاتنا، وما دام غيرنا من الناس كلٌّ يمدنا عمدًا أو سهوًا أو جهلاً أو عجزًا بما هو أساس حكمنا مما قد يجافى الصواب. ومن أجل ذلك ينبغى للمرء ألا يتشبث برأى كل التشبث، وعلى ذكر هذا القول أذكر كلمة لأوليفر كروميل معناها أن من رحمة الإيمان وصحته، أن يؤمن المرء بأنه قد يخطئ، ولكن حتى هذا الإيمان بالخطأ لايعصم المرء من الخطأ والتشبث به إذْ أن صاحبه لايراه خطأ.

١١ ـ إذا كان تنوع حجج التفكير النظرى يدعو إلى الحيرة والارتباك، فإن تنوع تجارب الخبرة قد يدعو إلى حيرة مثلها، لأن الأمور والأحوال المتشابهة مهما عظم أوجه الشبه بينها، لابد من أن يكون بينها من الاختلاف ما يتطلب نوعًا خاصا من أحكام الخبرة، فلا يصح الاعتماد كل الاعتماد على حكم الخبرة والتجربة فى أمر من الأمور؛ لأنه مشابه مشابهة قليلة أو كبيرة لأمر آخر خبرناه، فقد يقتضى الاختلاف القليل مسلكاً آخر من مسالك العمل وحكمًا آخر من أحكام العقل، ولكن الناس كثيرًا مايكتفون بالمشابهة ويتخذونها نبراسًا وهاديًا ودليلاً فيخطئون من حيث لايفطنون، على أن أحكام الخبرة قابلة للزلل الذى ينشأ بسبب أهواء النفس فشأنها فى ذلك شأن التفكير النظرى، وهم يحسبون أن

الخبرة عاصمة منه لأنها أمر عملى ـ وهذا يذكرنى قول أحد المفكرين الذى قال: إن خطأ الخبرة بسبب الأهواء قد يكون حتى فى تجارب معامل البحث الكيميائى.

١٢ ـ قلما يتفق اثنان فى الحكم على أمر من الأمور اتفاقًا تاما مهما تشابه رأياهما ـ ولو أن حادثًا حدث فى الطريق ورآه كثير من الناس ثم طُلب منهم وصفه لاختلفوا فى تفاصيل المرئيات حتى ليظن المرء أن بعضهم يكذب عمدًا، ولكن الاختلاف قد يكون من غير كذب متعمد، لأن نظر كل إنسان إلى الأمور يختلف عن نظر غيره بعض الاختلاف إلا إذا كان هناك إيحاء ورغبة فى الاتفاق لأَرَبٍ ما.

١٣ ـ اتفق أن رجلاً اتهم بالقتل وشبَّهَت بعض القرائن ولبَّست الحقيقة، فحكمت المحكمة عليه بالإعدام، ثم ضبط رجل آخر واعترف أنه جنى تلك الجناية وظهرت أدلة ذلك، فأبت المحكمة أن تعيد النظر فى الحكم على الرجل الأول احترامًا لقداسة القوانين والشرائع، وهذه سُنَّة لاتزال بعض الدول المتحضرة تأخذ بها. وكثيرًا مايفعل الناس ذلك ويعملون بهذه السُّنة فى حياتهم الخاصة ـ وهذا يذكرنى قصة تحكى عن كاليجيولا الامبراطور الرومانى إذ حكم على رجل بالإعدام، ثم ظهر أنه لم يجن ما نُسِبَ إليه، فقال: إنه إنسان فإذا لم يكن قد جنى هذه الجناية فلا بدَّ أن يكون قد جنى جناية أخرى فاقتلوه، وهذا من عنت القضاء وجنون الحاكم، ولكن للناس مايشابه هذه الصفة.

١٤ ـ ادعاء المرء أنه يعرف نفسه دليل على أنه يجهلها. فإن المرء يسبر غور النفس ويجد بعد طول ممارسته للبحث فيها أن الذى يعرفه من أمورها وأحوالها قليل جداً إذا قيس بما لا يعرف.

١٥ ـ الناس يكرهون النقد، وهذا بالرغم من ادعائهم ضد ذلك، وقد يُلِحُّ إنسان على صديق ويدعوه إلى نقد نفسه أو أعماله أو أقواله ويدعى أنه يحب الصراحة ويكره التملق، فإذا خُدِع صديقه بهذا الادعاء ونقد أعماله أو أقواله أو صفاته وجد منه نفوراً أو عداءً أو حقدًا أو غيظًا، وكلٌّ منا يلوم الحكام لحبهم

التملق، وكلٌّ منا يود أن يحاط بالمتملقين ـ إلاَّ إذا خشينا من تملقهم أن يراد به الاحتيال لنيل مالا نريد أن نجود به.

١٦ ـ ينبغى للإنسان أن يزداد قوة بمعرفة سقطات عقله ونفسه، وأن يكون مثل الجنِّى فى أساطير الإغريق الذى قيل إن أُمَّه الأرض وإنه كان كلما صُرِع وغُلِب ومسَّ جسمه الأرض ازداد قوة ونشاطًا وقدرة على الكفاح.

١٧ ـ ينبغى لكل إنسان ألا يحكم على أعماله بظاهر ما يؤيدها به من حجج. وأن يُعوِّد نفسه على أن يبحث عما وراء ذلك من أسباب مستترة ولا يطمئن حتى يصير ذلك البحث عادة تؤاتيه من تلقاء نفسها، ولكن ينبغى مع ذلك أن يعوف أن هذا البحث مطلب عسير، إذ أن النفس كثيرًا ما تَضلِّلُ صاحبها فيه بوسائل مختلفة.

١٨ ـ إن الإنسان الذى يتطلع إلى بلوغ منزلة كمال الملائكة قد تتدلّى به غرائزه فى سبيل هذا المطلب، وتهوى به طبائعه فى العمل للوصول إلى منزلة الأبرار حتى يصير فى حضيض الشياطين أو فى مرتبة البهائم أو الوحوش وهو لايدرى بل يُخيَّل له أنه يعمل للخير، فينبغى أن يحذر المرء ذلك.

١٩ ـ العادة تشكل الحياة كما تهوى، فكأنما هى خمرة الساحرة سيرسية التى يحكى عنها فى أساطير الإغريق والتى كانت تسقى من تستهويهم خمرة تُحيلهم قردَةً أو خنازير أو وحوشًا ضارية أو حيوانات مُستَذَلَّة. فليحذر المرء العادة إذا استطاع الحذر منها والتحكُّم فيها بدل تحكمها فيه، وهى فى أول أمرها أسلس قيادًا للمرء وأضعف، فإذا تأصَّلَتْ ركبته وغلبته على نفسه، وقد يكون تأصلها إما بسبب أن صاحبها يجهل عواقبها ويستلذ مواقعتها ومؤاتاتها، وإما من كسل الرأى والجسم، واليأسُ من التغلب عليها يؤدى إلى تحكمها وإلى ازدياد سوء عواقبها.

٢٠ ـ الموسيقا على لذتها إنما هى ائتلاف نغمات مختلفة الأصوات والمخارج والوقع، ومع ذلك يستطيع صاحبها أن يؤلف منها أنغامًا عذبة مقبولة إذا كان ممن يجيد فن الموسيقا، وكذلك من يجيد فن الحياة يستطيع أن يستخدم أحوالها

المختلفة من سرور وحزن ونعمة وشقاء وغنى وفقر، لكى يؤلف منها فنا مؤتلف النغمات عذبًا مقبولاً.

٢١ ـ مقاساة الآلام والخطوب هى فى الخوف من مقاساة الآلام والخطوب، فإن المرء بهذا الخوف يُقْبِلُ على مايخاف كبعض الحيوانات الضعيفة التى يقال إنها إذا تملكها الذعر كل التملك تُقْبل على الوحوش التى تفترسها.

٢٢ ـ كما أن علم الطب مؤسس على التجارب فعلم الحياة أيضًا مؤسس على التجارب، ولا صلاح لها إلاَّ بها ـ ولكن بعض الناس خلقت لهم غرائز وطبائع يعرفون بها طرق النجاح والصواب وإن قلت تجاربهم، كما أن بعضهم لاينتفع بكثرة تجاربه كالملاَّح الذى يطوف العالم فتحسب أن أسفاره قد جعلته خبيرًا حكيمًا عاقلاً عالماً، ولكنه قد يرجع من أسفاره وهو جاهل غبى كما كان قبلها، ولم تفده تجاربه ومشاهداته عقلاً أو علماً.

٢٣ ـ لا يمتاز الحق على الباطل بأن الحق من حقه أن يقال فى كل زمان ومكان، فقد يكون قول الحق مؤذيًا للناس مُضرًا بالعدل أو قد يكون قوله لا طائل تحته ولا فائدة إلا العناد الذى يجر إلى خبث النفس والحقد والمهاترة، أو قد يكون قول الحق كأنه لم يُقَلْ من صمم السامع، ولكن متى وجد الإنسان فرصة مؤاتية وزمانًا موافقًا واعتزم أن يتكلم وجب عليه ألا يتعدَّى الحق وألا يتخطَّى الصدق إذا وجد أن قوله غير مُضربالعدل والخير، فلو أن رجلاً فرَّ من مجرم حتى غاب عنه ورأيت الطريق التى سلكها وسألك المجرم أن تدله عليها كى يقتله، ما كان من العدل والخير أن تخبره، ولهذا المثل أشباه فى الحياة كثيرة.

٢٤ ـ كثيرًا مايحكم الناس ويتخذون رأيًا فى أمر من الأمور قبل تمام المعرفة وقبل اتخاذ الأهبة للحكم وقبل الاستعداد حتى لايفوتهم شىء من صواب أمره، وهذه عادة شائعة لها أسباب كثيرة مثل الكسل أو قلة الاكتراث والاهتمام بالحق أو الخوف من إرهاق النفس وكدها بالتقصى والتمحيص أو الاكتفاء برأى الغير وحكمه اعتماداً على أنه قد كلف نفسه مئونة البحث، وربما لم يكن قد فعل، كما لم يفعل من اعتمد على رأيه إلى آخر ما هناك من الأسباب العديدة.

٢٥ ـ إن الإنسان يخلق لنفسه ضرورات، فإن كثيرًا من الأشياء والأمور لاتصير ضرورية إلا لأن الإنسان ألفها فاحتاج إليها، ألا ترى أن الثياب ما كانت ضرورية قبل أن اتخذها الإنسان ورققت بشرته وأعصابه وإحساسه، فإذا حاول أن يستغنى عنها بعد ذلك هلك، ولكن قد يستغنى عنها من لم يتعوّدها من القبائل. وقد ذكر هيردوت المؤرخ أن جماجم قدماء المصريين كانت أكثر صلابة من جماجم الفرس؛ لأن قدماء المصريين تعودوا الإقلال من غطاء الرأس أو الاستغناء عنه، وتعوّد الفرس عطاء الرأس الثقيل، فالعادة تشكل الجسم وتتحكم فيه كما تتحكم العادة أيضًا فى النفوس والأمور النفسية. والمؤرخون يقولون إن اتخاذ الإنسان الثياب كان بسبب عصر الثلج الذى زحف فيه الثلج جنوبًا وبرد فيه الجوّ، فإذا صح ذلك كانت الضرورة هى التى دعت إلى الحاجة للثياب واتخاذها من جلود الحيوانات وفروها قبل أن يتعلم الإنسان الغزل والنسيج، ولكن بعض القبائل حتى فى الأقاليم الباردة لاتزال تعيش شبه عارية أو كان ذلك إلى عهد قريب.

٢٦ ـ ليست عظمة الأمور وقيمتها هى التى تدعو إلى البحث عن أسبابها، بل جدتها أو مفاجأتها أو غرابتها هى التى تدعو إلى ذلك وتغرى النفس بالتعلق والشغف بها وباستطلاع أمرها، وهذا يصدق فى أكثر الناس إلاَّ من خصص حياته لدراسة أمر هام، ومن أجل ذلك جاءت المخترعات والمستكشفات القديمة عفوًا كالنار مثلاً ـ ويقال إن البنسلين فى عصرنا كشف عفواً، على أن غرابة الأمور لاتمنع من أن تكون لها قيمة وعظمة.

٢٧ ـ من الخطأ وقلة الإنصاف أن نحتقر بعض الأعمال الضرورية لأنها ممضة متعبة كريهة مع أن الحياة لاتستقيم إلاّ بها، فضرورة العمل من مقاييس قيمته، والسعيد من تطاوعه نفسه على أن يستنبط سرورًا فى كل عمل ضرورى يعمله مهما كان كريهًا.

٢٨ ـ العقل يعرف بملكاته، فحيث توجد يوجد العقل. ومن ملكات العقل الحافظة والذاكرة وقياس الأمور والتهدى به إلى الصواب وإلى الرجوع عن الخطأ وهذه ملكات نجدها فى الحيوانات والطيور، ومن بحث فى حياتها وعرف صفاتها من وفاء وتذكر للجميل وحفظ ما تستوعبه حواسها ومن التأتى للانتقام ممن أساء

إليها ومن شهامة أو خبث تعد لهما الوسائل وتدبر الأمور، ومن حزن أو سرور، ومن ندم أو توبة، ومن مكر أو دعابة، ومن تهدٍّ إلى الصواب بعد الخطأ ومن نظر إلى ماتستطيع أن تعمله إما بتدريب أو بغير تدريب ـ لايستطيع أن ينكر أنها عندها قوة الإدراك وحفظ ما تدركه وعندها التذكر والاستنتاج، وقد أطال مونتانى فى ذكر شواهد ذلك وقصصه، وذكر أنها ماكانت تستطيع كل ذلك لولا ملكات العقل المذكورة.التى نسبها إليها. وللرحالة (هانز كودنوف) حجج وقصص مثلها فى كتاب (جيرانى الإفريقيون)، ولجاك لندن القصصى الأميركى أيضًا.

٢٩ ـ لو كان للكذب وجه واحد فربما استطاع الإنسان معرفته، ولكن الأكاذيب تختلط وتتفاعل فتنشأ عنها أكاذيب أخرى مختلفة الوجوه والأنواع والأشكال، فلا تستطاع معرفة الباطل بسبب هذا التفاعل، وقد يكون الكذب شبيهًا بالحق فيخدم المرء وجه الشبه أو قد يكون فى الكذب شىء من الحق وكل ما أضيف إليه من الكذب والباطل يخرجه عن حد الحق، وقد يجعله أبلغ فى باب الكذب.

٣٠ ـ من الخطأ أن يحتقر المتعلق بأمور الروح أو صفات العقل جسمه إكرامًا لنفسه، فإنه لاكرامة للنفس من غير كرامة الجسم والاهتمام بأموره.

* * *